

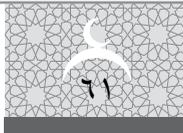
نزعة إقصاء الفكر الآخر في عقلانية الجابري

دراسة في بعض من تجليات التعصب والتعتيم في فكر الجابري

عبد الفضيل ادراوي*

لن يكون من نافلة القول الإشارة إلى أن البحث في فكر أية أمة من الأمم يقتضي من صاحبه ضرورة التوسل بروح من الانفتاح على كل مكونات هذا الفكر، وفسح المجال أمام كل تفاصيله؛ الرسمية منها وغير الرسمية، المركزية منها والهامشية. من أجل تكوين صورة آمنة ومستوعبة لكل مكوناته وميكانزمات انبثائه. خاصة إذا تعلق الأمر بمشروع يُعلن عن نفسه مشروعاً استقرائياً تاماً، يحمل على عاتقه الكشف عن الصورة الحقيقية لعقل أمة بكاملها. كما هو الشأن مثلاً في مشروع يتصدى لدراسة العقل العربي في عموميته، ويبحث في آليات اشتغاله. وفي هذا المضمار قد لا نختلف بشأن ريادة المفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري في مجال التحمس للفكر العقلاني، وبشأن كونه من المفكرين العرب الذين كرسوا حياتهم للبحث في بنية العقل العربي، وفي محدداته وتجلياته وطرق اشتغاله، سواء أعلق الأمر بالعقل العربي في التاريخ، أم بالعقل العربي في الحاضر، وفي علاقته بالغرب. فقد تميّز الراحل بجرأة قلّ نظيرها في اقتحام المجالات المسكوت عنها، وفي الإفصاح عن وجهة النظر الناقدة، مهما تكن مواقف الآخرين منه. كما أننا قد لن نختلف في حماسة الرجل الزائدة للحدثة الغربية، ودعواته المستمرة للانخراط في مستلزمات المدنية المعاصرة والحاجة إلى انتهاج السبل العقلانية التي اعتمدت في الغرب وأسفرت عن بناء مجتمع حضاري عصري ومتقدم ومستدير، ظلّت صورته تشكّل النموذج الممكن تمثله وترسم خطاه في مخيال الجابري. غير

* أستاذ باحث، مهتم بالنقد والبلاغة وتحليل الخطاب جامعة عبد المالك السعدي، تطوان - المغرب.



أن الذي يمكن أن يكون مثار اختلاف بين كاتب هذه الأسطر وعدد كبير من المعجبين بنهج الجابري العقلاني، الأدعاء بأن عقلانية المرحوم الجابري ظلت، على أهميتها وجرأتها، عقلانية يمكن أن ننتعها بالعقلانية السلفية، أو العقلانية المتعصبة، التي تأخذ لنفسها حيزاً تصنيفياً معيناً، وتُضحيّ بآليات العقلنة وبمستلزمات الانفتاح في سبيل الانتصار لوجهة فكرية معينة، وفي سبيل إقصاء وجهات فكرية أخرى لا تناسب المنطلقات والقناعات المتحكمة في رؤيته للعقل العربي. وإذا كان المقام لا يتسع للكشف عن ملامح التحيز والتعصب في فكر الجابري عموماً، فإن ثمة مواقف يمكنها أن تكون عناوين بارزة لذلك.

العقلانية وسلطة الانتماء والفئوية

ومن المواقف التي يمكن أن تكشف عن طبيعة النظر العلمي الذي تحكّم في مقاربتة العقل العربي، موقفه من التراث الآخر، وخصوصاً التراث الشيعي بما هو مكوّن بارز من مكونات الفكر العربي. والحق أن الجابري في مشروعه الضخم عن العقل العربي؛ «تكوين العقل العربي (١٩٨٤)»، «بنية العقل العربي (١٩٨٦)»، «نقد العقل العربي (١٩٩١)»، لم يغفل الحديث عن التراث الشيعي، بوصفه رافداً أساساً من روافد هذا العقل، ومحدداً من مُحدّداته، التي لا يمكن التغاضي عنها أو إقصاؤها. إلا أنه في انفتاحه واعترافه المحتشم بهذا الموروث، لم يكن أحسن حالاً من كل المحاولات الإقصائية التي سبقت. فقد تميّزت أبحاثه ومقاربتة للفكر الشيعي، ولتاريخه السياسي، بنزوع جدلي واضح، فهو يبدو منطلقاً في وجهة نظره من مناهج ومفاهيم، تعلن عن نفسها علمية وبرهانية، لكن في حقيقة الأمر، لا يحس المتتبع استحكامها أو توظيفها في مفاصل البحث. بقدر ما يحس هاجساً سياسياً أيديولوجياً يتوسل بالانتقائية والابتسار، ويعمد إلى افتعال صراع مع العقل الشرقي عموماً، وجعله خارج الإطار العقلاني الذي ينشده ويحلم به. ولو بالاستغناء عن الآلية الإبستمولوجية المعلنة في استكشاف البنية الحقيقية لهذا العقل.

ومما قد يبدو للمتتبع مظهراً من مظاهر اللاتوازن في مشروع الجابري، شخّ المصادر الشيعية وقلة اعتمادها، في مقابل اعتماد ترسانة ضخمة وغنية من المصادر السنّية ومعها المصادر الاستشراقية. وهذا من شأنه أن يُعطي المتأمل في مشروع الجابري عن العقل العربي، انطباعاً واضحاً، بأنه أمام مشروع محصور في البحث عن محددات العقل العربي السنّية فحسب، رغم ما قد يبدو على عنوانه من شمولية وعموم.

بل إننا نلفي الجابري نفسه يُصرّح بما يفيد هذه الحقيقة، من جهة، وبما ينسف دعواه الشمولية عن العقل العربي، من جهة أخرى. يقول: «وإن جميع من له إلمام بأحداث القرن الهجري الأول يعرف كيف أن مصادرنا التاريخية، أو بعضها على الأقل -المصادر السنّية عموماً- تجعل (الفتنة) زمن عثمان، من تدبير شخص، اسمه عبدالله بن سبأ...»

وقد أطلقت مصادرنا التاريخية على حركة المعارضة لمعاوية، اسم (السبئية) نسبة إلى عبدالله بن سبأ هذا... أما غلاة الشيعة الذين ظهروا بأعداد لافتة للنظر، مباشرة بعد مقتل الحسين، فإن معظمهم كانوا من أصل يماني ويروّجون لـ(عقائد) ترجع بها مصادرنا التاريخية إلى (ابن سبأ)»^(١).

فهو يصنف نفسه ضمن دائرة الاتجاه السني، دون سواه، وخصوصاً في منزعه السلفي الأشعري الذي كان قاسياً وحاسماً في مواجهة الفكر الشيعي. فلا يُخفي تبنيه لوجهات نظر أمثال؛ الأشعري في (مقالات الإسلاميين)، والبغدادى في (الفرق بين الفرق)، والشهرستاني في (نهاية الإقدام في علم الكلام) وفي (الملل والنحل)، والنيسابوري في (المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين)، وابن تيمية في (مجموع الفتاوى)، وابن خلدون في (المقدمة).

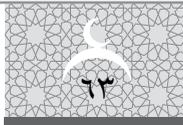
عقلانية الحسم والتعميم ونتائج التنقيص

ولذلك وجدنا أن الجابري يسقط في التحامل والإسقاط غير المبرر لأحكام وتصورات هي أقرب إلى التعصب والمركزية الذاتية والانتصار لمنطق الغلبة والأمر الواقع، منها إلى العلم والموضوعية.

ومن جملة المواقف التي كان فيها الجابري متحمساً ومعمماً، على غير ما تقتضيه الدقة العلمية والتحقيق التاريخي، ذهابه إلى أن التشيع يفتقد الأصول الفكرية الأصيلة في الفكر الإسلامي، ويرجع في أصوله التأسيسية التكوينية إلى شخصية عبدالله بن سبأ اليهودية، التي تظاهرت باعتناق الإسلام. فالجابري رغم إدراكه الاختلافات الكبيرة بين المؤرخين حول هذه الشخصية، وهو ما كان يقتضي منه مزيداً من الدقة والتمحيص، والانفتاح على كل الكتابات التي تحدّثت عنه. إلا أنه أعفى نفسه من ذلك، واختار أن يُعَيَّب ما قالته مصادر وتحقيقات الطرف الشيعي في المسألة، ليفترض «أن يكون ابن سبأ، اليهودي اليمني، قد تسمى بعد إسلامه بـ(عبدالله)، ولقب بـ(ابن سبأ)، لكون اسمه الحقيقي اسماً يهودياً... وإذن فعدم اشتهاار ابن سبأ باسمه الحقيقي لا يجوز اتخاذه دليلاً على أنه شخصية أسطورية»^(٢). ويؤسس على هذا الافتراض نتائج أخرى أشد قسوة. حتى إن عناوين كبرى وبارزة في المعتقد الشيعي الإمامي، تصبح مجرد أفكار وأطروحات من إملاء هذا اليهودي. يقول مثلاً: «هكذا نخلص إلى النتيجة التالية، وهي أن عبدالله بن سبأ شخصية حقيقية، وهو يهودي من اليمن أسلم زمن عثمان أو قبله، ونشر فكرة الوصي... إلخ. ثم صار يحوم حول علي بن أبي طالب بعد أن تولى الخلافة. ولكن عندما بدأ يغالي في حقه نفاه إلى المدائن. وعندما اغتيل عليّ نشر فكرة الرجعة والوصية، فكان بذلك الأصل الأول للغلو في حق علي، وستقوم

(١) محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩١، ص ٢٠٧.

(٢) نفسه، ص ٢٢٠ - ٢٢١.



على أفكاره هذه جملة آراء وعقائد في الإمام والإمامة اكتست طابعاً ميثولوجياً^(٣). فالتراث الشيعي برمته -بحسب هذا المنظور- مجرد إحياء من إحياءات هذا اليهودي المتأسلم. وهكذا تصبح معتقدات راسخة في الفكر الشيعي، لا أساس لها في الذاكرة العربية الإسلامية، وإنما هي دخيلة على جسم هذه الأمة، ومستوحاة من العقيدة اليهودية.

وعلى هذا الأساس يبني الجابري مشروعته، فيطلق أحكاماً تفتقد إلى التريث والبحث العلميين، ويقرر حقائق تنفي أيّ مظهر من مظاهر الأصالة عن هذا الفكر. فالسبئية عنده «هم أول من أطلق على عليّ بن أبي طالب لقب (الوصي)، والمقصود هو أن النبي ﷺ أوصى له بالإمامة من بعده»^(٤). وهو حكم مطلق ونهائي يتجاهل من خلاله الجابري كل المصادر، سواء أكانت سنية أم شيعية، فصّلت الكلام في هذا الأمر وحققت فيه، وانتهت إلى وجود هذا اللقب ورسوخه وأصالته في الثقافة الإسلامية^(٥). بل إن الباحث يجعل من شخصية المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي عرف بتحركه السياسي المعارض بعد موت علي بن أبي طالب، هو المؤسس للنظرية الشيعية برمتها. فهذا الشخص عند الجابري، هو الذي طرح فكرة الطلب بدماء أهل البيت، والدفاع عن الضعفاء، إضافة إلى سجع الكهان، وهي كلها «جملة أفكار ستصبح الأساس الذي ستقوم عليه النظرية الشيعية في الإمامة... وتشكل البنية التي تقوم عليها ميثولوجيا الإمامة عند غلاة الشيعة، ونظرية الإمامة عند المعتدلين منهم»^(٦). فيبدو كيف أن كل فرق الشيعة عند الجابري هم في خندق واحد، يجمعهم الولاء لأفكار المختار ولعقائده التي تختلط بسجع الكهان، وترجع في أصلها إلى عقائد يهودية، نشرها بحنكة ومكر بالفن، عبدالله بن سبأ.

ولعمري إن الباحث لو أعطى لنفسه مجالاً للبحث والتقصي العلمي والموضوعي، وتخلّى عن النظر المسكون بالرؤية التنقيصية التعميمية والإقصائية، لوجد أن النظرية الشيعية مدينة في وجودها بمراحل مبكرة وسابقة على مرحلة المختار. فالشيعة في تعريف الشهرستاني، وهو من أبرز مصادر الجابري: «هم الذين شايعوا عليّاً رضي الله عنه على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصية، إما جليّاً وإما خفيّاً»^(٧). فتكون حركة التشيع إذن ممتدة إلى الأيام الأولى للخلافة الإسلامية، وتكون الحركة المعارضة التي امتنعت عن بيعة السقيفة، وتمسكت بعلي بن أبي طالب إماماً شرعياً، تجسداً عملياً

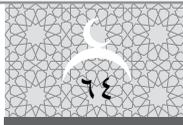
(٣) نفسه، ص ٢٢١.

(٤) نفسه، ص ٢٨٠.

(٥) ينظر: كتاب المراجعات للسيد عبدالحسين شرف الدين، تحقيق وتعليق حسين الراضي، دار الكتاب الإسلامي. ففيه بحث مفصل عن هذه النصوص ومثيلاتها في أمهات الكتب والمصادر المختلفة. انظر مثلاً: المراجعات من ٢٠ إلى ٥٥.

(٦) الجابري، العقل السياسي العربي، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٧) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٤٦.



وترجمة واقعية وفعلية للنظرية الشيعية في الحكم.

والمتتبع لحركة وحياة الأمة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ، يدرك جيداً أن اتجاهين رئيسيين ومختلفين قد رافقا نشوء الأمة وتجربتها؛ اتجاه أول يميل إلى الاجتهاد واستعمال الرأي الشخصي، واتجاه يلتزم بالنص التزاماً حرفياً عبّر عنه بالشيعية. وهو ما سوف يبرز بشكل أساس بعد وفاة الرسول ﷺ. ويذهب أحد الباحثين إلى أن ما حصل في التاريخ الإسلامي، هو أنه قد قدر للاتجاه الأول أن يحكم «فاستطاع أن يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما أقصي الشطر الآخر عن الحكم، وقدر له أن يمارس وجوده كأقلية معارضة، ضمن الإطار الإسلامي العام، وكانت هذه الأقلية هي (الشيعية)»^(٨).

ولا نظن أن الجابري جهل كثرة المصادر التاريخية التي بسطت القول في هذه الحركة، وذكرت رموزاً وشخصيات من كبار الصحابة، تمسكوا بخلافة علي، واحتجوا بنصوص مشهورة بين المسلمين، وموجودة في أمهات المصادر التاريخية والحديثية التي لا يمكن أن يكون الجابري في غفل عنها. فهذا الطبرسي يورد جواباً للإمام جعفر الصادق عن سؤال أحد تلامذته بشأن بعض من تمسك بالنص ووقف موقفاً معارضاً للسلطة التي قامت بعد وفاة الرسول ﷺ، فيعد اثني عشر نفرأ؛ «فمن المهاجرين: خالد بن سعيد، ابن أبي العاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وبريدة الأسلمي. ومن الأنصار أبو الهيثم بن التيهان، وعثمان بن حنيف، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري»^(٩). ونقتصر في هذا المقام على نص واحد يتضمن ألقاب (الإمام) و(القائد) و(الولي) و(الوصي) التي يرى الجابري أنها من اختلاق ونشر المختار، الذي جاء متأخراً بكثير. فمما يُروى في كتب الحديث بشأن علي بن أبي طالب: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَسَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَعْسُوبُ الدِّينِ، وَخَاتِمُ الْوَصِيِّينَ، وَقَائِدُ الْعُرِّ الْمُحْجَلِينَ». فدخل علي، فقام إليه مستبشراً، فاعتنقه وجعل يمسح عرق جبينه وهو يقول له: «أَنْتَ تَوَدِّي عَنِّي، وَتُسْمِعُهُمْ صَوْتِي وَتُبَيِّنُ لَهُمْ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ بَعْدِي»^(١٠). وهذا

- (٨) محمد باقر الصدر، نشأة الشيعة والتشيع، منشورات الغدير، بيروت، ط ٤، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ٧٣.
 (٩) أحمد بن أبي طالب الطبرسي، الاحتجاج، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٧٥.
 والنص المذكور أيضاً عند أحمد بن يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ١٠٣.
 (١٠) نقلاً عن عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، ص ٢٧٠. ويورد محقق هذا النص عديداً من المصادر السننية التي أوردت الحديث، فقال عنه في الهامش رقم ٥٥٤: «يوجد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٩، ط. مصر بتحقيق أبو الفضل، حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٣، المناقب للخوارزمي الحنفي، ص ٤٢، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي، ج ٢، ص ٤٨٧، مطالب السؤول لابن طلحة الشافعي، ج ١، ص ٦٠، ط النجف، وص ٢١، ط طهران، الميزان للذهبي، ج ١، ص ٦٤، كفاية الطالب للكنجي الشافعي، ص ٢١٢، ط الحيدرية، وص ٩٣، ط. الغري، ينابيع المودة، للقندوزي الحنفي، ص ٣١٣، ط إستانبول، فضائل الخمسة للفيروزبادي، ج ٢، ص ٢٣٥، فرائد السمطين، ج ١، ص ١٤٥».

لعمري أمر يدعو إلى العجب؛ أن يتغافل الجابري عن مقولات واردة في أمهات المصادر التي تتوفر بين يديه، وهي مصادر سنية، ومعتمدة بين العامة والخاصة، ويضرب عنها صاحبنا صفحاً، ويفضّل أن يجد التأسيس لها في المعتقد اليهودي.

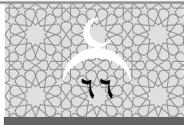
ويضيف الباحث فكرة (المهدي)، لتكون هي الأخرى عقيدة من العقائد اليهودية المتسربة إلى المخيال الثقافي الشيعي، فيقول: «فكرة (المهدي) هذه، هي كما هو معروف، من أصل يهودي. إنها ترجمة لكلمة (المسيح) وباللغات الجانية Messie, Messiah، ومعناها (المسوح)... والمسح في التوراة معناه الهداية والتأييد الإلهي»^(١١). وهذا حسم يتجاهل مرة أخرى العشرات من المصادر السنية التي تناولت الفكرة عند المسلمين، ونظرت إليها من بديهيات المعتقد العربي الإسلامي. وإذا كان الجابري يجهد نفسه ليثبت أن عديداً من الفرق والطوائف والشخصيات اعتمدوا المهودية في حركتهم في المجتمع الإسلامي، بشكل جعلها تبدو فكرة ممقوتة ومستهجنة، أفلم يكن أولى به أن يستفيد من ذلك، ليدرك أنها فكرة أصيلة ومعروفة بين المسلمين، وتحتل مكانة راسخة في نفوس العامة، ولذلك اتخذت وسيلة فعالة لتحقيق المآرب السياسية الخاصة؟ «ولولا ثبوت (فكرة المهدي) عن النبي على وجه عرفها جميع المسلمين وتشبعت في نفوسهم واعتقدوها، لما كان يتمكن مُدَّعُو المهديّة في القرون الأولى كالكيسانية والعباسيين وجملة من العلويين وغيرهم، من خدعة الناس واستغلال هذه العقيدة فيهم طلباً للملك والسلطان، فجعلوا ادّعاءهم المهديّة الكاذبة طريقاً للتأثير على العامة وبسط نفوذهم عليهم»^(١٢). هذا ناهيك عن إغفال الجابري التام للمصادر الشيعية التي وصلتنا عن أئمة الشيعة الأوائل، والتي تحدثت عن هذه المعتقدات التي جعلها كلها ذات أصول يهودية هرمسية. وكان يكفي الجابري من هذه المصادر كتاب (نهج البلاغة) للإمام علي بن أبي طالب. فقد تضمن ما لا حصر له من المواقف التي عرض فيها لقضية الإمامة والإمام وعلمه وعصمته، وكذا قضية المهدي وما يتعلق بها^(١٣). بل إن التاريخ قد احتفظ لنا بمؤلفات لأئمة الشيعة الأوائل الذين لا يمكن أن تُتجاهل مكانتهم بين الناس في المجتمع، ولا يمكن أن يبقى معها معنى لدعوى تزعم أن هذه المعتقدات

(١١) الجابري، العقل السياسي العربي، ص ٢٨٧.

(١٢) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، ص ١٠١.

(١٣) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق وتنسيق علي أنصاريان، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٧م.

تراجع عن الإمامة والإمام الصفحات: (٧٦-١٢٧ - ١٦٢ - ٢٢٨ - ٢٩٤ - ٢٢٥ - ٤٨١ - ٥٢٠ - ٥٣٦ - ٥٢٨)، وعن علم الإمام بالمغيبات الصفحات: (٢٥ - ١١٩ - ١٣٠ - ٢٤٢ - ٣٣٠)، وعن عصمة الإمام الصفحات: (١٩ - ٢٢ - ٣٢ - ٦٥ - ١٢٦ - ٢٤٢ - ٢٧٠ - ٣٥٣ - ٥١١)، وعن تبحر الإمام في العلوم الصفحات: (١٤ - ٢٠ - ١٩٧ - ٢٥٦ - ٥٠٦)، وعن المهدي المنتظر وفكرة المهودية الصفحات: (١٢٩ - ١٤١ - ١٨٥ - ١٩٨ - ٢٥٥ - ٥٠٦ - ٥١٤ - ٥٣٠ - ٥٢٢).



هي من نسج الغلاة، أو الفرق المختلفة التي ظهرت عبر مراحل تاريخية مختلفة، أو أنها من وحي الشخصيات اليهودية المتأسلمة في المجتمع العربي الإسلامي. بل يتبيّن باللموس أنها أفكار أصيلة في الثقافة العربية، طرحها الأئمة أنفسهم، بوصفها عملاً ضرورياً لبناء القواعد الشعبية الواعية التي تهيب الأراضية الصالحة لتسلّم السلطة، والحفاظ على الضمير الإسلامي كي يبقى على درجة من الحياة والصلابة.

إن الجابري في مشروعه عن العقل العربي، على الرغم من إعلانه المنهج العلمي البرهاني في مقاربة محددات هذا العقل، والكشف عن آليات اشتغال بنيته، إلا أنه لم يكن وقياً لهذا المنطلق، إذ تميّزت مقاربه للفكر الآخر، ونقصد العقل الشيعي تحديداً، بنزعة إقصائية تحاملية، بدءاً من تجاهله المصادر الشيعية الأصيلة المتضمنة لهذا الفكر. فلم نجد عنده ولو مصدراً واحداً من المصادر الثابتة والمحقة المنسوبة إلى أئمة الشيعة الاثني عشر. وهي -بالمناسبة- المصادر التي تضمنت الأفكار الأولى للتشيع، وبسطت المعتقدات التي يتبناها أتباعهم، والتي لا ينكر الباحث المنصف أنها تعرّضت في أحيان كثيرة، للتشويه والتبديل والتحريف، خاصة من لدن بعض المغالين والمستغلين، من ذوي المآرب الخاصة أحياناً، ومن بعض العوام الجاهلين أحياناً أخرى. وهو ما وقع فيه الجابري، فراح يحمل التشيع برمته وزر الأخطاء والتحريفات التي ألحقها به المغالون والمنحرفون والجهلة من الأتباع، قبل اتهامات وتلفيقات الخصوم.

فيبدو أنه قد اعتمد في أحكامه ومواقفه على مقروءاته من المصادر المعادية التي أُسّمت في مقاربة هذا الفكر بمنطق المواجهة والإقصاء. لذلك كانت استنتاجاته مُحلّقة في الفضاء نفسه، ليجعل من هذا التراث برمته اشتغالياً غير عقلاني، وفكراً مُؤسّساً على معتقدات وأفكار دخيلة مستقدمة من الفكر والعقيدة اليهوديين.

والحق أن المرء ليقف مندهشاً من إطلاقات الجابري ومن تعميماته الحاسمة، التي جعلت الشيعة على اختلاف فرقهم وعلى تعدّد مذاهبهم، كلهم في خندق واحد، من دون انتباه إلى الاختلافات التي وصلت حدّ التناقض فيما بينهم أحياناً، كما بيّن صاحب المقدمة: «وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير، إلا أن هذه أشهر مذاهبهم»^(١٤). ومن دون التفات إلى أن من فرق الشيعة من يقترب كثيراً من السنة، كما يشير إلى ذلك الشهرستاني الذي يعتمد الجابري بشكل لافت: «وبعضهم (الشيعة) يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه»^(١٥). إلا أن الجابري لا فرق عنده بين هذه الفرق. فجميعها ينضوي تحت لواء الأصل السبئي اليهودي للتشيع، في صورة عبدالله بن سبأ الذي أحسن توظيف شخصية علي بن أبي طالب واستغل مواقفه السياسية

(١٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٩.

(١٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٤٧.

التصحیحیة، لبثّ الفتنة في المجتمع، في مؤامرة يهودية مأكرة. وبهذا المنطق أصبح الشيعة الإمامية الاثني عشرية وغيرهم، متحدين ومنسجمين وممثلين لبنية عقلية واحدة لا يجد الباحث حرجاً في الحكم عليها بوصفها بنية محددة ذات تجليات ومحددات تُعبّر بشكل دقيق عن النظرية العقلية الشيعة.

الباطنية الدخيلة والقطيعة مع العقل الشرقي

وأصبح التشيع، في عرف الجابري، واستناداً على تعميماته السابقة، إطاراً عاماً ممنوعاً بالفكر الباطني، موسوماً بالغنوصية والهرمسية ذات الأصول الأجنبية المشرقية، الدخيلة على العقل الإسلامي، والموسومة بالسلبية والانطوائية، في مقابل العقلانية البرهانية التي سادت في الغرب، والتي يتحتم بعثها من جديد لتحقيق الحداثة والعقلانية المطلوبتين للعقل العربي. فالمطلوب اليوم -بحسب الجابري- قدر «من تحديث للعقل العربي، وتجديد للفكر الإسلامي، يتوقف ليس فقط على مدى استيعابنا للمكتسبات العلمية والمنهجية المعاصرة.. بل أيضاً، ولربما بالدرجة الأولى، يتوقف على مدى قدرتنا على استعادة نقدية ابن حزم وعقلانية ابن رشد وأصولية الشاطبي وتاريخية ابن خلدون.. فباستعادة العقلانية النقدية التي دشنت خطاباً جديداً في الأندلس والمغرب مع ابن حزم وابن رشد والشاطبي وابن خلدون، وبها وحدها، يمكن إعادة بنية العقل العربي من داخل الثقافة التي ينتمي إليها، مما يسمح بتوفير الشروط الضرورية لتدشين عصر تدوين جديد في هذه الثقافة»^(١٧).

ولعل هذا المطلب المقترح من الجابري أن يكون نوعاً من إعلان القطيعة مع الشرق، هذا الفضاء الجغرافي الذي تنحصر قيمته وتراجع، لكونه مستتباً لبنية غير عقلانية، تمثلت في الموروث الشيعي؛ (الباطني) و(الهرمسي) و(الغنوصي)، عنوانها العام العقل العرفاني المشرقي (اللامعقول)، وهو العقل الذي لم يكن، بهذه المواصفات، ليخدم (المعقول) أو الفلسفة، بقدر ما كان يجرها إلى الخلف ويصنع عليها طابعه الباطني الظلامي، فقد «كانت الفلسفة في المشرق متجهة إلى الوراء». و«استعملت العقل لإضفاء نوع من المعقولية على ما هو (لا عقل)، على نزعتها الصوفية. ومن هنا اكتسبت طابع المسيرة الفلسفية الدينية»^(١٧). في مقابل ذلك يمثل العقل البرهاني البياني الغربي؛ أو المغربي الأندلسي، الذي شجّع الفلسفة وخدم العملية وكان عنوانه العام بنية (المعقول). ولذلك فلا بأس عند الجابري أن يُطالب بشبه قطيعة بين الشرق والغرب، وأن يحدث انفصال بين الجغرافيتين، لتحقيق النهضة العقلانية المطلوبة والتأسيس لمشروع يكون متميزاً بـ«ثقافة أصيلة مستقلة عن ثقافة المشرق»^(١٨).

(١٦) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، ط ١، يناير ١٩٨٦، ص ٥٦٦.

(١٧) محمد عابد الجابري، نحن والتراث، دار الطليعة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(١٨) نفسه، ص ٣٦١.

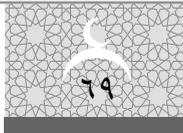
ومن ثمة، فَتَحَّتْ مُسَمَّى العقلانية التي افتقدت في الشرق، لأنه احتضن التعاليم الشيعية المؤسسة للفكر الباطني القائم على التأثر والتماهي مع التيارات الفكرية الفنوصية الهرمسية الدخيلة على المجتمع الإسلامي، والقادمة من بلاد فارس، بما هي اتجاهات من الطبيعي أن تتهم بالغرابة وبالضلالة والزيغ، والتهديد للفكر المتعقل والدين الأصيل. تحت هذه المسميات تكون رؤية الجابري للفكر الآخر تؤسس لعلاقة قائمة على المواجهة، وتغدو المواجهة مع هذا الفكر مشروعة، ويكون منطق التعتيم والإقصاء منطقاً مستساغاً ومباحاً لمواجهة هذا الفكر، اتِّقَاءً لخطره المحقق، وتجنبياً للعقل الأصيل مثالب السلبية والانطوائية المقوتتين، ودرءاً لمظاهر الفنوصية الظلامية «ذات الملامح الهرمسية المخاصمة للعقل»^(١٩).

* * *

هكذا يبدو أن الجابري ظل متأثراً إلى حدٍّ كبير برؤية متحيّزة لجانب واحد من جوانب العقل العربي، وانساق مع تصنيفات فتوية ومواقف أبدت وجلأً غير مبرر من مسألة التشيع، وأحكمت الباب في وجه تيار كبير من تيارات التفكير العربي، اندغاماً مع متطلبات السلطة التي كانت ترى فيه، وفي رواده دعاة المعارضة ومستقطباً لولبياً لخصومها. فلم يستطع صاحبنا التجرد من نزعته التسننية المتشعبة بمقروءاتها في كتب تاريخية ذات نهج مللي محض، ظلت أبداً تُعلي من شأن وجهات فكرية معينة، وتُبدي قلقاً غير مبرر من توجهات فكرية أخرى، بحجة العقلانية المعلنة، وبمبررات انتمائية ضيقة غير معلنة. ومن ثمة يحق للمتابع لمشروع الجابري عن العقل العربي أن يتساءل عن إخلاصه للعقلانية

(١٩) عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام؛ (العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ)، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٨٩، ص ٩٤. وقد خصص هذا الدارس مبحث (الشيعية) وهو الفصل السابع من كتابه، للبحث في العقل الشيعي، (الصفحات من ٨٨ إلى ١٠٦).

وللإشارة فإن هذا الدارس يصدر في مقاربة الموروث الشيعي عن رؤية علمانية حدثية منحازة هي الأخرى، ومتسمة بنزعة إقصائية تهميشية واضحة شبيهة بنزعة الجابري، إلا أن هذا الدارس يختلف عن الجابري في كونه يميز بين الفرق الشيعية ولا يجعلها جميعاً في خندق واحد. فهو يرى أن عملية الانسلاخ الشيعي عن جسد التيار العام للمجتمع الإسلامي قد استغرق «مدة غير قصيرة من الزمن، تعرضت خلالها جماعات الشيعية، عبر سلسلة من المعارك، لنوع من الانتخاب الطبيعي... كانت المذاهب الشيعية تنشأ شيئاً فشيئاً مع حركة الحوادث السياسية في عملية جدل تاريخية بطيئة» (ص ٨٨).
ومن ثمة فالعقل الشيعي عنده خاضع لعملية تكوّن مستمرة، والمبادئ النظرية لهذا العقل «لم تطرح في نسقها النهائي المعروف قبل التداعيات اللاحقة على الانفجار السياسي الأول» (ص ٨٨).
كما يختلف عن الجابري في كونه يجعل العقل الشيعي في بنيته الإبيستيمولوجية مكوناً من ملمحين متزامنين؛ ملمح الفنوصية في مسألة الإمامة وكل ما يتعلق بها من معتقدات وأفكار، وملمح العقلانية والاجتهاد في كل ما هو خارج الإمامة. ومن ثمة فهو لا ينفي وجود فلسفة شيعية تقوم على نصرة العقل والإيمان بحرية النظر الفكري، ولذلك فهو يرى أن هناك «في المنظومة الشيعية - خارج نظرية الإمامة - ميلا لا شك فيه إلى الحرية العقلية» (ص ٩٥).



ومقتضياتها الإستيمولوجية؟. ويكون التساؤل عن علاقة الجابري بالسلفية المتعصبة أمراً مشروعاً ومبرراً بقوة.

مصادر ومراجع الدراسة:

- أحمد بن أبي طالب الطبرسي، الاحتجاج، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٣ م.
- أحمد بن يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي دار صادر، بيروت.
- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣ م.
- محمد عابد الجابري؛
أ) نحن والتراث، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣ م.
ب) بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، ط١، يناير ١٩٨٦ م.
ج) العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩١ م.
- عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، تحقيق وتعليق حسين الراضي، دار الكتاب الإسلامي.
- الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر.
- محمد باقر الصدر، نشأة الشيعة والتشيع، منشورات الغدير، بيروت، ط٤، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، دار الصفاة، بيروت، ط٩، ١٩٩٢ م.
- علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق وتنسيق علي أنصاريان، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ط١، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٧ م.
- عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام؛ (العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ)، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٩ م.